المحاضرة الرابعة عشر: فلسفة اللغة في عصر التنوير – كوندياك وروسو

شهد عصر التنوير تحولًا كبيرًا في فلسفة اللغة، إذ أصبح الاهتمام منصبًا على العلاقة بين اللغة والتفكير البشري، وكيفية نشأة اللغة من الخبرة والتفاعل الاجتماعي، بعيدًا عن النظريات الميتافيزيقية القديمة التي ركزت على الكليات أو الطبيعة الثابتة للكلمات. وقد ركز فلاسفة هذا العصر على دراسة أصل اللغة، تطورها، ووظيفتها في التعبير عن الفكر والمشاعر الإنسانية.

أولاً: كوندياك(Condillac, 1715–1780)

درس علماء القرن الثامن عشر أصل اللغة بشكل فلسفي وتاريخي، سعياً لفهم طبيعتها وطبيعة الفكر البشري. وقد رأى كل من روسو وكوندياك أن اللغة نشأت من الصراخ والإيماءات والتقليد الطبيعي، ثم تطورت لتشمل الأصوات المرتبطة بالموجودات والظواهر، ومع الوقت تكونت المفردات والقواعد النحوية. وقد لاحظ كوندياك أن اللغات الأولى كانت لغة الفعل، أي مرتبطة بالحاجات والانفعالات، ثم تطورت لتصبح لغة مركبة تضم حركات وإشارات وصوتًا، كما في الحضارات الشرقية.

يرى كوندياك أن اللغة ليست مجرد وسيلة لنقل المعاني، بل هي منهج التحليل الفكري ذاته. فالاسم ليس مجرد دلالة عشوائية، بل هو أصل المعنى، والألفاظ الكلية هي الطريقة التي يعبر بها الذهن عن التشابه والاختلاف بين الأشياء. ومن هذا المنطلق، يقسم كوندياك المعاني إلى بسيطة ومركبة ويستخدم التحليل للكشف عن عناصرها، مؤكداً أن الطبيعة خالية من الماهيات والأنواع والأجناس؛ هذه المفاهيم لا توجد إلا بفضل اللغة التي تصنفها وتمنحها شكلاً واضحاً.

لغة الحركة ولغة الفعل

تتجلى أهمية لغة الحركة أو لغة الفعل في أنها تعكس العناصر الفطرية للطبيعة التي تسبق الفكر. فهي تمثل إحساس الإنسان واندفاعاته الطبيعية، وتتيح له التعبير عن الأفكار المتزامنة في ذهنه بشكل مباشر. لقد لاحظ كوندياك أن هذه اللغة الأولى كانت وسيلة لتحليل أفعالنا، بحيث تتحول لاحقاً إلى لغة مركبة تشمل الإشارات والحركات والكلام، كما هو الحال في الحضارات الشرقية. وبذلك تصبح اللغة أداة لإظهار العلاقة بين الفكر والعالم، فهي منهج التحليل الذي يربط بين الانفعال والفكر المجرد.

دور اللغة في بناء الفكر

وفق كوندياك، اللغة تسبق الفكر في كثير من الأحيان، فهي الأداة التي نصنف بها الأشياء ونبني الأفكار المجردة. ولغات الشعوب القديمة، مثل اليونانية، كانت أكثر خصوبة للخيال لأنها لم تخضع لنظام صارم من العلامات، على عكس اللغات الحديثة التي تميل إلى البساطة والتحليلية الزائدة، مما يقلل من حيوية الخيال. كما أن دراسة الجذور اللغوية والكلمات واشتقاقاتها) مثل Baron أو (Barge توضح العلاقة بين الشكل والمعنى، وتكشف أن الكلمات ليست وحدات عرفية اعتباطية، بل تمثل تراكم الخبرة البشرية والتجربة التاريخية.

وقد أكد كوندياك على أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل منهج تحليلي يعكس طبيعة الفكر. فاللغة البسيطة، التي تعتمد على العلامات المرتبطة بالحواس، تساعد على تصنيف وتبويب الأفكار. ومن هنا تنشأ فكرة أن الفكر لا يمكن أن يصح إلا من خلال اللغة، فالطبيعة لا تقدم أنواعًا وأجناسًا جاهزة، بل اللغة

هي التي تصنفها. كما رأى أن اللغات القديمة، مثل اليونانية، كانت أكثر خصوبة للخيال مقارنة باللغات الحديثة البسيطة، لأنها لم تكن مرتبطة بإشارات صارمة أو نظام محدد، بل كانت لغة حركة وحيوية تغذي الإبداع والتعبير. وقد لاحظ أيضًا العلاقة بين الموسيقى والشعر والكلام، حيث ساعدت الإيقاعات والنغمات على تطوير التعبير اللغوي وتعزيز قدرة الإنسان على التمييز بين الأفكار المتزامنة. (خالدي، 2021)

ثانيًا: روسو(Jean-Jacques Rousseau, 1712–1778)

لقد تناول روسو اللغة من منظور اجتماعي وإنساني، معتبرًا أن اللغة نشأت من الاحتياجات الاجتماعية والعاطفية للإنسان، وليس من العقل المجرد فقط. حيث بدأ الإنسان باستخدام الأصوات والكلمات للتواصل مع الآخرين، ثم تطورت اللغة تدريجيًا لتصبح وسيلة للتعبير عن المشاعر والأفكار فاللغة هي أداة للتفاعل الاجتماعي وبناء الروابط الإنسانية، وليست مجرد رموز عقلية أو نظام منطقي.

يقدم لنا روسو في وصفه "لحالة الطبيعة" تصوّرًا لمرحلة سابقة على وجود المجتمع والثقافة، وهي حالة مفترضة يعيش فيها الإنسان في الغابة والطبيعة بحرية مطلقة، شبيهًا بسائر الحيوانات. ويرى روسو أن الإنسان لا يمكنه تحقيق تقدم أو تطور دون التواصل مع الآخرين، ومن هنا اضطر إلى ابتكار أداة للتواصل، وهي اللغة.

كان الصراخ والعويل أول أشكال اللغة البدائية، إذ استُخدم طلبًا للنجدة والحماية من الأخطار المحيطة. ويؤكد روسو أن هذا "النمط الأولي من اللغة" كان مزيجًا من الأصوات غير المترابطة والحركات والضجيج، فيما يشكل بكاء الطفل في مراحل نموه شكلًا أوليًا للغة الطبيعية المشتركة بين الناس، ومن خلالها بدأ الإنسان بتشكيل العلاقات الاجتماعية الأولى. بعد ذلك، تطورت اللغة من لغة الحركات والإشارات إلى الصوت المنطوق، الذي أصبح وسيلة تعبير حساسة عن الفكر والعاطفة. ويرى روسو أن اللغة الحقيقية تنبع أساسًا من العواطف والانفعالات أكثر من الحاجات، فالحب والكراهية هما ما دفع الإنسان للصراخ والتواصل. وبذلك، يمتلك روسو تصورًا ثلاثي الأبعاد للغة: بعد الحاجات، بعد العواطف والانفعالات، وبعد العقل. (أعراب، 2017)

كما يميّز روسو بين نوعين من اللغة: النوع الأول يهدف إلى الإقناع، حيث تكون الأصوات واضحة وممنهجة لتبليغ المعنى الحقيقي، وهذه اللغة مرتبطة بالعواطف والوجدان. تكمن أصالة روسو في ربط الكلام بالعاطفة مقابل الحركات والإشارات البدائية، ليكون للكلام وظيفة شاعرية وموسيقية، ويعكس شفافية ووضوحًا في التعبير.